BAYERO UNIVERSITY KANO
CENTRE FOR ISLAMIC CIVILIZATION AND INTERFAITH DIALOGUE

جامعة بايرو - كانو

مركز الحضارة الإسلاميّة والحِوار الدّيني

المَمالك الإسلاميّة في غَرب إفريقيا
تاريخُ النَّشأة وعَواملُ السُّقُوط

محمّد الثّاني عُمر مُوسى

(القسم الأوّل)

٩/المحرم /١٤٤٣هـ

١٨/أغسطس/٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا
تاريخ النّشأة وعواملُ السُّقُوط

المدخل:

شَكَّلَت المَمَالِكُ الإسلاميَّة في غرب إفريقيا نُقلةً كبيرةً من مُتخلَّفات الوثنيَّة الإفريقيَّة إلى حَضارةٍ إسلاميَّةٍ زاهرةٍ، وصَعِدتِ البلادُ إلى معارج العلمِ والمعرفة والتَّقُّدم، سَاعدها على ذلك طبيعةُ موقِعها الجُغرافيّ، وبسالةُ أهلِها وإصرارُهم، وسياسةٌ اتَّسمت بالحِنكة والقوّة.

حُدودُ غرب إفريقيا:

تَحُدُّ غربَ إفريقيا من الشِّمال الصحراءُ الكبرَى، ومن الشَّرق الكامِيرون وبحيرةُ تشاد، ومن الجنوب خَليجُ غِينيا، ومن الغَرب المحيطُ الأطلسي[1].

الإسلام في غرب إفريقيا:

عَرف الإسلامُ طريقَه إلى غرب إفريقيا مُنذ عام ٤٦هـ، بوصول طلائعِ المسلمين بقيادة عُقبة بن نافع إلى إقليم (كوار) شمالَ شَرق بُحيرة تشاد.

ودَخلَ المنطقةَ بصورةٍ أوضح في القرن الرَّابع الهجريّ (القرن العاشر الميلاديّ). وهو اليومَ يمثِّل دينَ الأكثريَّة في المنطقة.

طُرقُ انتشار الإسلام في غرب إفريقيا:

١) طريق الفاتحين:

كان أبرزَهم عقبةُ بن نافع الّذي ولَّاه عَمرو بن العاص رضي الله عنه على شِمال إفريقيا، ففتحها وأسَّسَ بها مدينةَ القَيروان[2] الَّتي تحوَّلت لقاعدةٍ لفتوحاته، ثمَّ توسَّعت

---

(١) قداح، نعيم، **إفريقيا الغربية في ظل الإسلام**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (ص١).

(٢) انظر: السلاوي، أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، (١/١٣٧).

بشكلٍ أفضلَ حِين توَلَّى مرَّةً ثانية في عهد يزيد بن معاوية سنة ٦٢ه[١]، فواصل تقدُّمَه صوبَ الغرب حتى انتهى إلى المحيط، فنزل بفرسه فيه حتى بلغ الماءُ نحرَه، ثمّ قال قولته المشهورة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُشهدك أَلا مجَاز، وَلَو وجدت مجَازًا لَجُزْتُ»[٢].

ثم تحوّل نحوَ الجَنُوب حيثُ التقى بقبائل صُنهاجة، فأسلموا على يَديه، ثم استمَّر جَنوبًا في أطراف بلاد السّودان، ودخل بلادَ غانا، وغِينيا، وتُكرور، وأسلمت على يديه بعضُ القبائل الأمازيغيَّة. فلما اسْتُشْهد – وكان أوَّلَ قائدٍ إسلاميٍّ يُستَشْهد في إفريقيا – خَلَفه زُهير بن قَيس البلوي في عهد عبد الملك بن مروان، وتوسَّع في فتوحاته حتَّى اسْتُشْهد بها سنة ٦٩هـ[٣]، وخلَفه عبدُ الرَّحمن بنُ حَبيب بنِ أبي عُبيدة بن عُقبة، فسار إلى بلاد السُّوس، وحَفَر سلسلةً من الآبار في الصَّحراء، لِيصلَ شمالَ إفريقيا بجَنُوب الصَّحراء.

وكان غربُ إفريقيا خلالَ عهد الخلفاء الرَّاشدين وبني أميَّة في التَّنظيم الإداريِّ تابعًا لمصرَ، ثمَّ توالت فتوحاتُ المرابطين في عُمق المنطقة، وارتفع ذكرُ الدُّول الإسلاميّة.

وبعدَ دخول المرابطين مملكة غَانا الوثنيَّة في القرن الرَّابع الهجريّ، أسلم سكّانُها، يَقول القَلقشنْدي[٤]: «وكان أهلُها قد أسلموا في أوَّل الفتح الإسلامي». وبذلك لم يَظهر الإسلامُ مرَّةً واحدةً في مملكة غانا.

ويُمكن القولُ بأنّ انتشار الإسلام عن طريق الفتوحات إنَّما كان من طريق الحَمْلَتَيْن على مملكة غانا الوثنيّة، الأولى بقيادة الأُمَويِّين في صدر الإسلام، والثّانية في القرن الخامس الهجري بقيادة المرَابطين.

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبرر**، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، (٢٣٧/٤).

(٢) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبدالله، **فتوح مصر والمغرب**، مكتبة الثقافة الدينية، ط. ١٤١٥هـ، (ص٢٢٦)، وابن الأبار، محمد بن عبد الله، **الحلة السيراء**، تحقيق د. حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط. الثانية، ١٩٨٥هـ، (٣٢٩/٢).

(٣) انظر: ابن خلدون، **التاريخ**، (٢٣٨/٤).

(٤) القلقشندي، أحمد بن علي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٧٤/٥).

٢) عن طريق الدعاة:

تتابع الدّعاةُ والعلماءُ إلى غرب إفريقيا للدَّعوة إلى الله ونشر العلم بين أبناء تلك المنطقة سواءً كان ذلك بمبادرة شخصيَّةٍ، أو بمرسومٍ سُلْطانيٍّ ودعوةٍ من حُكَّام تلك الممالك المسلمين، فأُنشِئَتْ المساجدُ والمدارس والزَّوايا الّتي كانت منارًا للعلم والتَّعليم والدّعوة إلى الله.

٣) عن طريق التُّجَّار والمهاجرين:

كان للتِّجَارة والهجرة إلى بلاد إفريقيا أثرٌ بالغٌ في نشر الإسلام في تلك الرُّبوع، فمثلًا في مملكة غانا الوثنيّة التي هي أقدم تلك الممالك كان التَّغَلْلُ الإسلاميُّ فيها سِلميًّا في أكثر أحواله، وقد بدأ حين قَدِم التُّجَّار المسلمون إلى كُومْبي صالح (عاصمة الدَّولة)، فَبنوا لسكَّانهم مدينةً خاصَّةً على الطِّراز المعماري في المغرب، ومارسوا عباداتِهم بكلِّ حُرّية وبَنَوا مِن أجل ذلك مساجدَ، وأَنْشَؤُوا مدارسَ لِتعليم القرآن واللُّغة العربيّة، ممّا جعل المؤمنين الأفارقةَ يُقبلون على تلك المدارس بشغفٍ كبيرٍ، ومَهَّد للُّغة العربيّة أن تكون لغةَ الثَّقافة الوحيدةَ في أالبلاد إضافةً إلى كونها لغةَ التِّجارة الّتي تُستَعمل في التّبادل التِّجاريّ والمكاتَبَات[1].

وقد اختلَط المسلمون القادمون إلى تلك المنطقة بسكّانها، وتزوَّج بعضُهم منهم، وشَيَّدوا لأنفسهم مراكزَ تجاريَّةً ومرافئَ للمراكب والسُّفن، ودَخل كثيرٌ من الوثنيِّين في الإسلام بفضل ما شاهدوا من أخلاق الإسلام وتَقاليده مَع أولئك التُّجَّار والمهاجرين.

---

(١) انظر: قداح، نعيم، **إفريقيا الغربية في ظل الإسلام**، (ص٤٠-٤١).

مملكةُ غانا الإسلاميّة

تاريخُ مملكة غانا هو أُولى حلقات التّاريخ القومي لغربي إفريقيا، فهي أوَّل إمبراطوريّة قامت بالسّودان الغربي، ولعلَّها أوّلُ تجربةٍ أو أقدمُ ما عُرف من تجارب الحكم الوطني النَّاجح بتلك البلاد، وقد دلّ ازدهارها وبقاؤها إلى القرن الثَّالث عشر الميلادي، على قدرة الإفريقيِّين على تدبير شؤونهم بأنفسهم، وهذا ما حمل القلَّة من الكُتَّاب الغربيِّين المنصفِين على أن تُقرِّر بأنَّ حضارةَ هذه البلاد في العصور الوسطى لم تَكن دون حضارةِ البِيض، بل فاقت حضارةَ بعض البلاد الأوروبيَّة[1].

وقد بلغت هذه الأمبراطورية ذورةَ مجدها من حَوالي القرن التّاسع الميلادي إلى القرن الحادي عَشر، وحَكمت مساحةً شاسعةً امتدَّت إلى ما هو الآن جُنوبُ شرقِ مُوريتانيا وغربُ مالي وغربُ السِّنغال وشرقُ غِنيايا (كُونَكاري)[2].

اشتهرت مملكةُ غانا بهذا الاسم نسبة إلى عاصمتها مدينة (غانا) (Ghana) أو (غاناتا) (Ghanata).

والرّاجح: أنّ كلمة (غانا) كانت أصلًا لقبًا يُلقب به ملوكُ هذه المملكة، ثمّ استُعمل مدلولُ اللَّفظ حتَّى صار عَلمًا على العاصمة وعلى المملكة[3].

وموقع مدينة (غانا) القديمة موضعَ نقاشٍ وجَدل، ولكنَّ أطلالَها تَقع اليومَ بالقُرب من الحدود الجُنوُبيَّة لجمهورية مُوريتانيا الحديثة، وتَقعُ ضِمْنَ أراضي جمهوريَّة مالي الحديثة[4].

وأهمّ القبائل الَّتي كانت هي أغلبُ سكَّان مملكة غانا في العُصور الوُسطى هِي قبائِلُ (السُونِنْكي) (Soninke)، وقد امتزجُوا بالبربر والفولانيِّين، وهم زُرَّاعٌ مرتبطون بالأرض.

---

(١) طرخان، إبراهيم علي، **إمبراطورية غانه الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (١٩٧٠)، (ص١٣).

(٢) انظر: طرخان، المصدر السابق (ص٣٠).

(٣) طرخان، المصدر السابق (ص١٦).

(٤) انظر: طرخان، المصدر السابق (ص٣٣).

ومن الأسماء التي كانت تطلق عليهم عند الفلانيّين والهوسا والسنغاي: ونغارا أو ونغاروا (Wangara, Wangarwa)[1].

وامتلكت مملكةُ غانا ثَرواتٍ طبيعيَّةً ساعدتْها على البقاء والتمدُّد، كالذَّهب والملح، ثمّ موقعُها الاستراتيجي الواقعُ على أهمّ الطُّرق التِّجاريَّة، فكانت القوافلُ تَصل إليها من مصرَ والقَيْروان وأَعالي نَهْرَي السِّنغال والنَّيجر، إضافةً إلى نشاطها الزِّراعي وإيرادات الضَّرائب، فانتعشَ اقتصادُها وازدهرتْ، وَتَوسَّعت أملاكُها وتوزَّعت على عدِّة ولاياتٍ وإماراتٍ بين أعالي نَهْرَي السِّنغال والنَّيجر[2].

سقوط غانا الوثنيّة وقيام غانا الإسلاميَّة:

حاربتْ قبائلُ الملَثَّمين بقيادة قبلية لَمْتُونَة مَلِكَ غانا الوثنيَّة في جيشه في عام ٣٨٠هـ، (٩٩٠م)، وَانهزم جَيشُ غَانا، وكان النّصر للمُسلمين، وتولَّى قيادَة المسلمين رجلٌ من قبيلة جَدَالة، وهو يحيى بن إبراهيم الّذي استطاع أن يُوحِّد الملَثَّمين تحتَ قيادةٍ واحدة.

كان هؤلاء الملَثَّمون لا يعرفون من الإسلام إلّا اسمَه، وقد تَغلْغت فيهم عاداتٌ وتقاليدُ وثنيَّة شركيَّة، فَعَمِلَ القائدُ يحيى بن إبراهيم على تخلِيصهم من تِلك العادات، وسَاعده على ذلك الفقيهُ المالكي ابنُ عمران الفاسي الّذي التقاه في رحلته للحجّ بالقَيْروان، وطلب منه أن يُنفِذ معه أحدَ تلاميذه إلى قبائل الملثَّمين للدَّعوة والتَّعليم، ووقع الاختيارُ على الفقيه عبد الله بن ياسين الّذي كانت له معرفةٌ تامَّةٌ بتلك القبائل واللَّهجات البربريَّة وعاداتِهم، فكان نِعْم العَوْنُ والنَّصِير.

أكثر الفقيهُ عبدُ الله بن ياسين من الدَّعوة والتّعليم في تلك القبائل، وجعلَ لهم حلقاتِ دروسٍ وتربية، مما بدأت آثارُها تَظهر بين النّاس. وكان نهجُه في حَمل النَّاس عَلى الالتزام بالدِّين وتعاليمه نهجًا صارمًا لا هوادة فيه، مما جَعل بعضَ القادة الملثَّمين يَنزعجون من سلوكه، ويخافون على أنفسهم أن تُسَدَّ عنها منافذُ الشَّهوات والملذَّات الّتي اعتادوها في حياتهم، فحملوا على ابن ياسين والأمير يحيى بن إبراهيم حملةً نَكراء، ألجأتهما وأتباعَهما

---

(١) انظر: طرخان، المصدر السابق (ص١٨، ١٩، ٢٠).

(٢) انظر: طرخان، المصدر السابق (ص٢٥).

إلى الخُروج من المنطقة، واتَّجهوا نحوَ الجُنوب، حيثُ استقرُّوا بِرَبْوةٍ في جزيرةٍ تقع على مصبِّ نَهر السِّنغال، وتحوَّلت هذه المنطقة أخيرًا إلى مركز رباط للعبادة والعلم والجهاد، وسار النَّاس يتيمَّمون إليها قاصدين التحَاقَ بركبِ الفقيه عبد الله بن ياسين.

وبعدَ مرور عشر سنوات تجمَّع لدى ابن ياسين عددٌ كبير من الرِّجال وصلوا إلى ثلاثة آلاف رجل ملتزم بتعاليمه وشروطه، ومن ثمّ شَعَر بالقُدرة على الجهاد في سبيل الله، وتطهير المجتمع من الفساد، فقال لهم: «اخرُجُوا على بركة الله، وانذرُوا قومكم، وخوِّفوهم عقابَ الله، وأَبلغوهم حجَّته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحقِّ، وأَقلعوا عمَّا هم عليه؛ فخلُّوا سبيلهم، وإن أبوا من ذلك وتمادَوا في غيِّهم، ولَجُّوا في طغيانهم، استعنَّا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتَّى يحكمَ الله بيننا وهو خيرُ الحاكمين»[1].

وتوَّجه عبد الله بن ياسين نحو الشَّرق، فهاجم مملكةَ غانا، وفتح مدينة أُودغُست عام ٤٤٨هـ، (١٠٥٦م) وافتتحها، وانطلقت بعد ذلك دعوةُ الإسلام في صفوف الوثنيِّين.

لقد قاد أبو بكر بن عُمر أميرُ الملثَّمين خليفةُ يحيى بن عمر مهمَّة نشر الإسلام بين الوثنيِّين، فدخل النَّاس في دين الله أفواجًا، وبخاصَّة في منطقة نهر السِّنغال حيث تحوَّل كثيرٌ من شعب الفولاني إلى الإسلام عام ٤٦٩هـ(١٠٧٦م).

يقول الحافظ ابن كثير عن هذا القائد وجهوده[2]: «أبو بكر بن عُمر أمير الملثَّمين كان في أرض فَرْغَانة اتَّفق له من النَّاموس ما لم يتَّفق لغيره من الملوك، كان يركب معه إذا سار لقتال عَدوٍّ خمسُمائة ألف مقاتل، كلٌّ يعتقد طاعتَه، وكان يُقيم الحدودَ ويحفظ محارمَ الإسلام، ويسير في النَّاس سيرةً شرعيَّةً مع صحَّة معتقَدِه وموالاة الدَّولة العبَّاسيَّة».

لكن الجدير بالذّكر أنَّ الإسلام في السُّودان الغربي والأوسط قديمٌ، ولم يكنِ المرابطون الذين قاموا بنشر الدّعوة الإسلاميّة في القرن الحادي عشر الميلاديّ، هم الّذين

---

(١) دندش، عصمت عبد اللطيف، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا**، دار الغرب الإسلامي، ط. الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، (ص٧٥-٧٦).

(٢) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر، ط. الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، (١٦/١١١).

أدخلوا الإسلام في تلك البلاد لأوَّل مرَّة، بل إنَّ حركتَهم أدَّت إلى ازدياد عدد الدَّاخلين في الإسلام.

فالصّلة التّجاريّة والثّقافية قائمةٌ منذ الأزمنة السّحيقة، بين بلاد السُّودان وبلاد البحر المتوسّط، وقد كثرت هجرةُ المسلمين بعد ظهور الإسلام، من العَرب والبربر إلى بلاد السُّودان، منذ الفتح العربيّ الإسلاميّ لمصرَ وشمالَيْ إفريقيا[1].

ومن الظَّواهر البارزة في تاريخ مملكة غانا، حتَّى في عهد الحكومة الوثنيَّة، أنّ المسلمين؛ لكَثرتهم وأهميَّتهم وثقافتهم ونَشاطهم سواءٌ أكانوا من السُّونِنْكي أو مِن المستوطنين من العرَب والبربر، قد تمتَّعوا باحترامٍ واضحٍ من قِبَلِ الملوك الوثنيِّين، ومجرّد نُموّ القسم الإسلاميّ في العاصمة، ووجُود اثني عشرَ مسجدًا بها، دليلٌ كبيرٌ على هذا الاحترام وهذا التَّسامح، وأكبر من هذا أنَّ الملِك الوثنيّ قد بَنَى مسجدًا في الحيّ الوثني من العاصمة، وهو (الغابة)، لكي يُؤدِّي فيه المسلمون الوافدون شعائرَ دينهم، كما يذكر البَكري في تاريخه[2].

وفي عام (٤٦٩هـ/١٠٧٦م) سَقطت مدينةُ (كومبي صالح) عاصمةُ غانا، وضمَّها المرابطون إلى أراضيهم قَبل أن يُسلم تَانْكَامِنين ملِك غانا، ثمَّ ما لبث أن تأثَّر بالإسلام، فأسلم، وقَبِل بسُلطان المرابطين. وفتح إسلامُ ملِك غانا البابَ واسعًا لإسلام رعيّته، وتحولت مملكةُ غانا من الوثنيّة للإسلام، وأضحت جزءًا من دولة المرابطين الإسلاميّة.

وتُوفي أبو بكر في عام ٤٨٠هـ/٩٦٠م، بعد مسيرة حافلةٍ بإنجازات ونجاحاتٍ، فتنازع أتباعه بعده، ودبَّ فيهم الوهنُ والضّعف، فاستغل ذلك الغانيُّون الفرصة فسيطروا على عاصمتهم، وأعلنوا تبعيَّتَهم للخلفية العبَّاسي في بغداد مباشرةً، مع صحّة إسلامهم وتفانِيهم في الدَّعوة إلى الله، حتى اقترن اسم (سُونِنكي) بالدّعوة إلى الله عند بقية القبائل

---

(١) طرخان، إبراهيم علي، **إمبراطورية غانة الإسلامية**، (ص٤١).

(٢) انظر: طرخان، المصدر السابق (ص٤٥)، والدالي،الهادي المبروك، **مملكة مالي الإسلامية**، الشركة العامة للورق والطباعة، الزاوية، ط. الثانية، ١٩٩٩م، (ص١٧).

الإفريقيّة، وارتفعَ العُمران الإسلاميّ والمآذن، وانتشرت المساجدُ ومدارسُ تعليم القرآن، وأصبحت اللّغة العربيّة لغةً للعبادة والثّقافة والتّجارة.

ثمّ كانت نهايةُ دولة غانا الإسلاميّة على يد فَريقٍ من قبائل الصُّوصو الَّذين كانوا يَسكنون جنوبي مملكة غانا غَربي الحوض الأدنى للنَّيجر، وقد خضع بقيّتهم لملوك غانا المسلمين، حتى إذا تفرَّق أمرُهم وضعفتْ مملكتُهم أعلنوا استقلالهم، وانفصلوا عن دولة غانا، ثم هاجموها بَادئين بغزوِ إقليم (دَابَارَا) المجاور لهم، وكان جزءًا من دولة غانا، ولما لم يُصادفوا ردَّ فعلٍ قويًّا من ناحية ملوك غانا قام أحدُ رؤساءِ الصُوصو يدعى (صُومانغورو) بالتّقدم شمالًا، واستولى على مدينة (غانا) عاصمة الدَّولة سنة ٦٠٠هـ(١٢٠٣م) وقضى على الدّولة، وهرب فريقٌ من سكان غانا عاصمة الدّولة بقيادة زعيم لهم يسمَّى الشَّيخ إسماعيل إلى مدينة وَلاتة نحو الشّمال، وأنشأ مركزًا تجاريًّا كبيرًا أصبح بعد ذلك من أعظم مراكز التّجارة في إفريقيا الغربيّة الإسلاميّة.

تمكن (صومانغورو) من الاستيلاء بعد ذلك على كلِّ بلاد دولة غانا، ثمّ اصطدم في الجنوب برجال دولة إسلاميَّة صغيرةٍ كانت إذْ ذاك ناشئةً في (كانغابا)، وأصحابُها من قبائل (الماندينغو)، فانتصر عليهم، وقَتل ولدين من أولاد ملكهم (ناريه نمغان).

أمّا أصغر الأولاد (وهو الابن الثّاني عشر للملك ناريه نمغان) فقد أعفاه من القتل؛ لأنّه وجده ضعيفًا مريضًا، وبهذا نجا من الموت، وأصبح مؤسِّسَ مملكة مالي المشهور في التّاريخ باسم (ماري جاطة)، أي: ولد الأسد. وقد هرب إلى الجنوب، وكان ذلك فيما بين سنة ٦١٥هـ، (١٢١٨م) و ٦٢٩هـ(١٢٣٠م). وفي منفاه البعيد أخذ (ماري جاطة) يجمع الأنصار ويستعدّ للانتقام ممَّن قَضوا على مُلك أبيه، وقد تمكَّن من ذلك سنة ٦٣٣هـ، ١٢٣٥م بعد مغامراتٍ ومخاطراتٍ، ثم دخل مدينة غانا وقضى على بقية الصّوصو، ثمّ خرّب بلادهم تمامًا سنة ٦٣٨هـ، (١٢٤٠م)، وكان (ماري جاطه) مسلمًا، وعلى يديه قامت المملكة الإسلاميّة الإفريقية الثّانية، وهي مملكة مالي[1].

---

(١) حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط.الثانية، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، (ص٣٧٢).

مملكَة مالي الإسلاميّة

تُعدّ مملكةُ مالي من أقوى وأغنى ممالك غرب إفريقيا الّتي ظَهرت قبل الاحتلال الأوروبِّي.

بَسطت نفوذها من المحيط الأطلسي غربًا إلى أواسط الصَّحراء الكبرى شرقًا بما في ذلك ما يُعرف اليوم بدولة مالي، والسِّنغال، وغمبيا، وشمال بوركينافاسو، وأجزاءَ من شمال جمهورية بينين، وغَربِ النَّيْجر وجُنوب مُوريتانيا، وشمال غينيا كوناكري، وغربي وشِمالَي نهر النَّيجر ومُدن تِمْبكتو وجنِّي وغاو.

ولفظ (مالي) يعني بلغة أهل البلاد (فرس النَّهر)، وهو رَمزٌ للقوَّة والبأس في البر والبحر، وعُرفت باسم دولة (الماندنغ).

وإضافة إلى امتلاك هذه الدّولة مقوماتِ دولة غانا البائدة، فقد تميَّزت أيضًا بخصوبة أراضيها الزِّراعية، وشكَّلت نقطةَ وصلٍ مهمَّةً على الطّرق التِّجارية الّتي تَصل غربَ إفريقيا وجُنوبها بشرقِ القارَّة وشمالِهَا، ثمّ بسائر العالَم الإسلاميّ.

وامتلكت دولةُ مالي أيضًا السَّيطرة على خطوط تجارة الذَّهب الَّتي ازدهرت على ضِفاف نهر النَّيْجر.

تجدر الإشارةُ إلى أنَّ مملكة مالي خضعت لمملكة غانا فترةً من الزَّمن لكنّها ما انهارت أمام حَمْلة قبائل الصُّوصو الزِّنجية الوثنيَّة، بل حمت حدودَها واستقلَّت عن غانا بقيادة مَلِكها (سُوندياتا) الملقب (ماري جاطه).

وكان (سوندياتا) من قادة الماندينغ يَنتسب لأسرة كِيتَا، وهي آخرُ أسرةٍ حَكمت مملكة مالي أيّام خُضوعها لمملكة غانا[1].

ولم يمض خمسُ سنوات حتَّى استطاع (سوندياتا) أن يجمع قوّاته، ويؤسِّسَ جيشًا قويًّا قاده لقتال قبائل الصُّوصو، وانتصر عليهم في معركة فاصلة بـ (كِيرينا) الَّتي تَقع إلى الشّمال من (كانغابا) وذلك في عام ٦٣٣هـ(١٢٣٥م).

وقُتل في المعركة ملِك الصّوصو، وضعفت دولتُه.

---

(١) انظر: بيلتو، نافذ أيوب، وشاكر، محمود، **مالي**، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٨٧، ١٩٧٧م، (ص٤٠).

وفي عام ٦٣٨هـ(١٢٤٠م)، توجَّه (سوندياتا) نحو عاصمة غانا القديمة (كُومبي صالح) ودمَّر ما بقي منها[١]، وأسّس دولةً إسلاميَّة جديدةً من قبائل (الماندينغ)، لَمَعَ نجمُها بين القرنين الخامس والسّابع الهجريَّين، وتوزَّع نفوذُها على مُعظم أراضي مملكة غانا المنهارَة، كما كان لها الدّور البارز في نشر الإسلام في غرب القارة.

وبصُعُود النّفوذ المالي في المنطقة دانت جميعُ الممالك الإفريقيّة في غرب إفريقيا لها، فشكَّل ذلك سببًا آخر في توسُّع مواردها ومدَّخراتها، واستفادت من الثَّروات الطّبيعيّة الَّتي تمتلكها المنطقة كالذَّهب والزِّراعة والتِّجارة والضَّرائب الّتي كان يَدفعها السُّكّان.[٢]

مملكة مالي في عهد سوندياتا (٦٣٨-٦٥٣هـ) (١٢٤٠-١٢٥٥م)

اعتُبر الملِك (سوندياتا) بطلًا قوميًّا اقترن اسمُه بالحكايات الشَّعبيَّة؛ لكونه المؤسِّسَ الأوَّل لمملكة مالي، حتى بالغت الأساطيرُ في مدحه. وعَرفت البلاد تحت حكمه الاستقرارَ والأمان، كما نقل العاصمة من مدينة (جريته) إلى (نِيَانِي)، واشتهرت باسم مالي[٣]، وعليها سميِّت مملكة مالي.

وازدهرت العاصمةُ الجديدة بإقبال التُّجار من كلِّ مكان.

وقَسم دولته إلى اثني عَشر قسمًا إداريًّا، وَلَّى على كلِّ منها رجلًا من كِبار قُوَّاده[٤].

وجعلَ نظام الحكم في المملكة وِراثيًّا.

وقد كان (سوندياتا) عظيمَ الاهتمام بإدخال رَعَاياه في الإسلام. ويُنسب إليه إدخالُ زراعة القُطن في مالي. وفي أيّامه ازداد رَخاءُ مالي، وتكاثر سكّانُها، وعمَّهم كلَّهم الإسلام، وما زال يَعمل حتَّى أدخل فَرع (الوانغارا كلّه – وهو أكبرُ فروع الماندنغو - في الإسلام[٥].

---

(١) انظر: المصدر السابق (ص٣٨).

(٢) حمدان، ليلى، مقال منشور في موقع:

https://tipyan.com/history-of-islam-in-west-africa-1

(٣) انظر: طرخان، إبراهيم علي، **دولة مالي الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، عام ١٩٧٣م، (ص٤٢)، وحسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام** (ص٣٧٣).

(٤) حسين، مؤنس، المصدر السابق (ص٣٧٣).

(٥) حسين، مؤنس، المصدر السابق (ص٣٧٣).

كما حَافظ على تآلف النَّسيج الاجتماعي عن طريق الزَّواج والمصاهرة بين مختلف القبائل.

وازدهرت تجارةُ الذَّهب في عصره، وكانت أثمنَ وأهمَّ تجارةٍ في البلاد، كما انتعش نشاطُ العلماء الَّذين كانوا يجوبُون مقاطعاتِ المملكة لنشر العلم والإسلام.

فانعكست هذه الثَّرواتُ الطَّبيعيَّة والحركةُ العلميَّة تمكينًا وهيبةً على مملكة مالي، وتحوَّلت لقوَّةٍ ضاربةٍ في الأرض ومَضربٍ للأمثال. ولِشكر الله على ما أنعم عليه من استقرار وأمنٍ وازدهار خَرج (سونديانا) لأداء فريضة الحجّ. وبقيت مملكةُ مالي في هذا العزِّ. وتوفِّي (سونديانا) عام ٦٥٣هـ[١].

مملكة مالي في عهد مَنْسَى علي (٦٥٣-٦٦٨هـ) (١٢٥٥-١٢٧٠م):

وَرِث الملِكَ (سونديانا(ابنُه البِكْر (وَلي) وهو (علي) وهو أوَّل من أدخل لقب (مَنْسى) عَلى مُلوك مالي، فأصبح مشتهرًا باسم (مَنْسَى علي)[٢].

واستمرَّ على نهج أبيه، فَتابع الفتوحاتِ، وتمكَّن من السَّيطرة على مناجم جديدة للذَّهب، زادت من قوّة دولته وسلطانها، وازداد الأمن والرَّخاء في عصره.

وعلى غِرار والده أدَّى فريضةَ الحجِّ في عام ٦٥٨هـ(١٢٥٩م)، ومَرَّ في طريقه بمصرَ في عَصر سلطان المماليك الظَّاهر بِيبرس[٣]، الّذي أكرم وِفادَته وأحسَن استقباله، وعندما عاد إلى بلاده عَظُم شأنُه، وازداد جاهُه[٤].

ويُعتبر مَنْسَى علي مِن أعظم حُكَّام مملكة مالي، عُرف بالتّقوى والصّلاح والتَّفاني في نشر الدّعوة، وقد انتشر الإسلام في عصره بشكلٍ واسع.

---

(١) حمدان، ليلى، المصدر السابق.

(٢) انظر، القلقشندي، أحمد بن علي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، (٢٩٣/٥)، وحسين، مؤنس، المصدر السابق (ص٣٧٣).

(٣) انظر، القلقشندي، المصدر السابق، (٢٩٣/٥)، وبيلتو، ومحمود شاكر، المصدر السابق (ص٤٢).

(٤) حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام**، (ص٣٧٤).

وامتدَّ نفوذُ دولته إلى منطقتَي (بَامْبُوك) و(وَانْغَرَا)، الواقعتين على نهر السِّنغال، إضافةً إلى سيطرته على دولة سُنْغاي النَّاشئة، وأخذ عددًا من الرِّهان لضمان خُضوعها واستسلامها.

وتُوفي مَنْسَى علي عام ٦٦٨ هـ(١٢٧٠م)[١].

مملكة مالي في عهد خلفاء منسا علي (٦٦٩-٧١٠هـ) (١٢٧٠-١٣١١م)

بَعد وفاة منسى علي اضطربتْ مملكة مالي سياسيًّا لمدّة عَقْدين من الزَّمن[٢]، وتناوب على حُكمها عددٌ من الملوك الضُّعفاء[٣]، كان أوَّلَهم، أخوان لمنسى علي؛ وهما منسى وَاتي، ثمّ منسى خليفة، وكان الأخيرُ معتوهًا، يتسلَّى بإطلاق النِّبال على العامَّة، فثار عليه شعبُه وقَتله[٤].

وتولَّى الحكمَ بعد ذلك حفيد سونديانا (أُبو بكر) واستمر حكمه حتى عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) فانتزع الحكمَ منه مولًى من موالي أسرة (كِيتا) الحاكمة، يُدعى (سَاكُورا)، وكان أحد القادة[٥].

وخلالَ حُكمه قام بغزو منطقة التُكرور (الفلانيين) في السِّنغال، ومنطقة وانغارا ومدينة غاو على نهر النَّيجر.

وازدهرت البلاد في حُقبتِه، وعَرفت الاستقرارَ والرَّخاء فخرج للحجّ في عام ٧٠٠هـ، لكنّه ما لبث أن قُتل في طريق عودته لمملكته عام ٧٠٠هـ(١٣٠٠م)[٦].

---

(١) انظر: بيلتو، المصدر السابق (ص٤٢).

(٢) علي يعقوب، **دولة مالي الإسلامية**، (مقال)، **مجلة قراءات إفريقية**، العدد العشرون، ربيع الآخر- جمادى الآخرة، (ص١٦).

(٣) انظر: بيلتو، المصدر السابق (ص٤٢).

(٤) انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر**، (٢٦٧/٦).

(٥) انظر، بيلتو، ومحمود شاكر، **مالي**، (ص٤٣).

(٦) انظر، بيلتو، ومحمود شاكر، المصدر السابق، (ص٤٣).

وبمقتل (سَاكُورا) تناوب الحكم ثلاثةُ ملوك ضعفاء، كان آخرَهم أبو بكر الثَّاني الّذي حكم من (٧١٠-٧١٢هـ)، وهو الّذي خرج في سفينة في المحيط الأطلسي عام ٧١٠هـ ليكتشف ما بعده، ولكنَّه لم يَعُد أبدًا[١].

مملكة مالي في عَصر منسى موسى (٧١١-٧٣٦هـ) (١٣١٢-١٣٣٧م)

تسلَّم الحكمَ بعد (أبو بكر الثّاني) ابنُه (منسى موسى) الذي تحوَّلت مملكة مالي على يديه إلى إمبراطوريَّة إسلاميّة قويّة، مترامية الأطراف، تمتد من (غاو) في الشّرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب، مُرورًا بمدينتي (تِمْبكتو) و(جِنّي)، ومنطقة (فوتا جالون). وامتدّت مملكة مالي خلالَ عصره شمالًا داخلَ الصَّحراء، فوضعت يدها على مناجم الملح والنُّحاس حتى وصلت إلى مدينة وَلاتَة.

ومن جِهة الجنوب، التقت حدودُ مملكة مالي مع حُدود نيجيريا، وما يسمَّى اليوم بدولة بِنين[٢].

وعُرف الملك مَنْسى موسى باسم (كَانْكَنْ مُوسى)، ويُوصف بأنَّه من أعظم ملوك مملكة مالي، وكان رجلًا كريمًا صالحًا، صفتُه الورع، حتَّى وصفه المؤرِّخ ابنُ خَلدون بقوله[٣]: «كان رجلًا صالحًا ومَلِكًا عظيمًا، له في العدل أخبارٌ تؤثر عنه».

تميّز عصرُه باعتماده الإسلامَ نظامَ حكمٍ في البلاط الملَكي بشكلٍ رسميٍّ، فاكتَستِ المملكة الطَّابَعَ الإسلاميَّ، وأضحت مملكةُ مالي الإسلاميّةُ جزءًا لا يتجزَّأ من العالَم الإسلامي بعد عناية مَلِكها بمدِّ العلاقات الحمِيمة مع مصر والمغرب، ويُسجِّل له التَّاريخ مواقفَ مُروءة ونصرةٍ للمسلمين؛ إذ فَتح بلادَه بسخاءٍ للفارّين من الأندلس.

وازدهرت حركةُ الدَّعوة الإسلاميّة في عهده، وكان من بركاته أن وَصل الإسلامُ إلى أكثر بلاد نيجيريا، وفي عهده كذلك انتشر الإسلامُ إلى بلاد اليُوروبا، فصار يعرف بِدين مالي، حتّى يومنا هذا[٤].

---

(١) انظر: بيلتو، المصدر السابق (ص٤٣).

(٢) انظر: الدالي، الهادي المبروك، **مملكة مالي الإسلامية**، (ص٣٦-٣٧).

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق (٦/٢٦٧).

(٤) الألوري، آدم عبد الله الألوري، **الإسلام في نيجيريا، والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني**، (ص٢٤).

ولا شكّ أنّ مثل هذا التّألُّق وهذه القوّة التي ازدانتْ بها مملكةُ مالي في عصر مَنْسَى موسى جعلتْها مضربَ الأمثال في العالَم الإسلاميّ من الأندلس إلى خُراسان، وظهر اسمُها واسمُ مَلِكها على الخرائط الأوروبيّة الّتي صدرت في القرن الثّامن الهجريّ (١٤م).[١]

وانتشرت خلالَ عهد مَنْسَى مُوسى اللّغة العربيّة، وارتفعت مآذن المساجد، وانتشرت المدارسُ الإسلاميّة والمكتبات، وكانَ من أشهر صُروح العلم في المملكة جامعةُ سنكوري في تِمْبتكو، حيثُ اعتنت الجامعةُ العريقة بإرسال الطّلّاب لتلقِّي العلومِ في فاس والقَاهرة على نفقة المملكة[٢].

وكان الطّلبة يرجعون إلى بلادهم وقد أصبحوا أئمَّةً ومعلِّمين، فيسدُّون الثُّغور في المدارس والمساجد، في كلٍّ من العاصمة (نَيَاني) ومُدن (تِمبكتو) و(غاو) و(جني) الّتي تحوَّلت بفضل الاهتمام بالعلم إلى حَواضرَ ثقافيّة وحضاريّة بارزة.

ويُوازي هذا التّألُّقَ في الحياة العلميَّة والمدنيّة، اشتدادُ المعركة مع الوثنيِّين، حيثُ لم تزَل سيوفُ المسلمين في مالي مرفوعةً مع توالي الحروب الّتي كان يقودها مَنْسَى موسى لنشر الإسلام، وبَسْط نُفوذ المملكة الإسلاميّة، وبذلك ضَمن الجهادُ حفظَ سُلطانِ دولته، وَقَهْرَ أعدائها، بل والتّمدُّد بصفةٍ أوسع.

وأينمَا استتبَّ الأمنُ والاستقرار ازدهرت التِّجارة، وانتعشت قوافلُ التّجّار بمختلف أنواع البضائع والثَّروات. ووصلت قوافلُ مملكة مالي الإسلاميّة بدورها لبقية المناطق في العالَم الإسلامي. بل ووصلت شبَكاتُ التِّجارة المزدهرة إلى الجُنوب الوثنيّ، ممّا أدّى لتنقُّل الوفود والسِّفارات؛ لضمان مصالحهم التّجارية مع أكبر قوَّةٍ في المنطقة. وساعد هذا النُّفوذُ التُّجارَ المسلمين في إقامة مُستَعْمَراتٍ تجاريَّة لهم داخلَ مناطقَ الوثنيِّين، فكان لذلك بركاتُه في الدَّعوة إلى الإسلام.

---

(١) انظر: ليلى حمدان، المصدر السابق، وعلي يعقوب، المصدر السابق (ص١٨)، زوليخة عبدالرحمن، وأسماء عبد الهادي، **مملكة مالي على عهد السلطان منسى موسى**، بحث أكاديمي في جامعة أدرار، الجزائر، العام الدراسي، ١٤٤٠-١٤٤١م، ٢٠١٩م-٢٠٢٠م، (ص٣٠).

(٢) انظر: زوليخة عبد الرحمن، وأسماء عبد الهادي، المصدر السابق، (ص٤٩).

رحلة مَنْسَى مُوسى الشَّهيرة إلى الحج[1]:

وقد تناقَل المؤرِّخون خبرَ رحلة مَنْسَى مُوسى العجيبة إلى الحجّ بوصفها أشهرَ رحلةٍ للحجّ في التَّاريخ الإسلامي، وكانت في سنة ٧٤٣هـ(١٣٤٢م)، فقد لَفت بها أنظارَ العالم الإسلاميّ إلى ما امتلكه من ثروةٍ طائلة، وما تبرَّع به من عَطاءات وصَدَقات للمسلمين، فبحسَب المؤرِّخ المملوكي أحمد بن يحيي العَمري، أخذ مسنى موسى معه في رِحلته إلى الحجّ كميّاتٍ هائلةً من الذّهب تُقدّر بمائة بعير، واصطحب معه زوجتَه، وخَدَمَها، وستِّين ألف شخصٍ من رعاياه، بمن فيهم الوُزراء والقَادة والعُلماء. وكان يبني مسجدًا في كلِّ مكانٍ توقَّف فيه لصلاة الجمعة[2].

ويَذكر المؤرِّخون أنّ مَنْسَى موسى خلالَ مُروره على مصر للحجّ، التقى بالسُّلطان النّاصر محمّد بن قَلاوُون سنة ٧٢٤هـ- ١٣٢٤م، فاستقبله السُّلطان بحفاوةٍ بالغة، وأكرَم مَنْسَى مُوسى بدوره المماليك بالهدايا الثَّمينة[3].

ومما يَعكس بصيرةَ مَنْسَى موسى خِلالَ رِحلته للحجِّ حرصُه على نَقْل أربعِ أُسَر من قريش للاستقرار في مملكة مالي، كما اشْترى الكثيرَ من الكُتُب الإسلاميَّة في المذهب المالكيّ من مصر؛ ليثري مَكتبات مملكته.

وكذلك اصطحب الشَّاعر والمعماريَّ الأندلسيَّ أبا إسحاق إبراهيم السّاحلي المعروف باسم الطُّوَيْجن، فَأَوْكَل إلى مهمّة تَشْييد المساجد والمباني الفاخرة، فاكتست مملكةُ مالي لَمْسَةً جماليَّةً معماريّة تُعدّ الأولى في المنطقة، بإدخال أبي إسحاق فنَّ عمارةٍ جديدٍ قائمٍ على القَرْمِيد المحروق، والسُّقوف المنبسطة، والمآذن ذات الشَّكل الهَرَميّ.

---

(١) انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، (١٨/٢٤٠-٢٤١)، والمقريزي، أحمد بن علي، **الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك**، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، (٤٤١-٤٤٣)، **والسلوك لمعرفة دول الملوك**، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، (٢/٧٣)، والقلقشندي، **صبح الأعشى**، (٥/٢٩٥)، والسعدي، **تاريخ السودان**، (ص٨)

(٢) انظر: العمري، أحمد بن يحيى ، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط. الأولى، ١٤٢٣هـ، (٤/١٢١-١٢٢)، وابن خلدون، المصدر السابق، (٦/٢٦٨)، والسعدي، تاريخ السودان، (ص٧) والدالي، **مملكة مالي الإسلامية**، (ص٣٣)، وزوليخة، المصدر السابق (ص٣١).

(٣) طرخان، **دولة مالي، الإسلامية**، (ص٣١).

وفي الواقع تجلّت عبقريةُ مَنْسَى مُوسى من خلال اصطحابه الفقيهَ أبا عبد الله الكُوميَّ الموحِّديَّ في غَدامُس؛ ليصبح مع المِعْماريّ أبي إسحاق من كبارِ مُستشاريه وداعميه. فلا عَجَبَ أن بلغت مملكة مالي في عصره أَوْجَ تألُّقها وحضارتِها المتميِّزة.

وتُوفّي منسى موسى المحبّ للعلم واللّغة العربيّة، عام ٧٣٦هـ.

مالي في عهد خلفاء مَنْسَى مُوسى (٧٣٦-٧٨٩هـ) (١٣١٢-١٣٣٧م)

ورث حكمَ مملكة مالي الإسلامية بَعد منسى موسى، ابنه (مغان الأوّل) الذي كان وليَّ العهد خلالَ وجود والده في مكّة، وَحكم لمدة أربع سنوات، حتى عام ٧٤٠هـ(١٣٤١م). وكان ضعيفًا عَديمَ الخبرة والحِنكة، فَقد أطلق سراحَ أحد الرّهائن الذين كان يحتفظ بهم والدُه، فاشتعلت نيرانُ الخلاف والفرقة، وتسلّل الضَّعف إلى أركان مملكته، واشتدَّت الفِتن الدَّاخليَّة، واختلَّ ميزانُ الأمن والرّخاء فافتُقد الولاء للمَلِك.

وتَزامن مع هذا الضَّعف الدَّاخليّ والتّصدُّع، استغلالُ قبائل الموسي (Mossy) الوثنيَّة للوضع، وشنُّها هجماتٍ قويّة شكَّلت خطرًا حقيقيًّا على أطراف مملكة مالي، وعاثت تلك القبائلُ في الأرض فسادًا، ووصلتْ تِمْبُكتو فأحرقتْها، وأبادت حاميتَها[1].

ثم تسلَّم الحكمَ في هذا الاضطراب والضَّعف، سليمانُ وهو أخٌ لِمَنْسَى مُوسى وعمٌّ لمغان الأول، وذلك في عام ٧٤٠هـ، واستمرّ مَلِكًا لمالي حتّى عام ٧٥٩هـ.

وتمَكَّن سُليمان بفضل صلاحه وتقواه وتفقُّهه في الدّين من استقطاب عددٍ من أئمَّة المالكيَّة لمملكته، واهتمَّ ببناء المساجد والمدارس، كما تمكَّن من استرجاع مُعظم المناطق الَّتي خرجت عن سَيطرته ما عَدا مدينة (غاو) الّتي تَنمو خُطورتها بصفةٍ دائمةٍ على مملكة مالي. وأدَّى الحجَّ في عام ٧٥٢هـ(١٣٥٢م) وجَمَعَتْه علاقاتٍ وُدِّية طيّبة مع ملوك المغرب[2].

---

(١) انظر: بيلتو، وشاكر، المصدر السابق (ص٤٣)، والدالي، **مملكة مالي الإسلامية**، (ص٣٧)، وقداح، نعيم، **إفريقيا الغربية في ظل الإسلام** (ص٥٧).

(٢) انظر: قداح، المصدر السابق (ص٥٧)، وبيلتو، المصدر السابق (ص٤٤).

وفي عهده زار مملكةَ مالي الرّحالة العربي ابن بَطوطة عام ١٣٥٣م، وتنقَّل في ربوعها، ولقي السُّلطان، والتقى بطائفة كبيرة من العلماء والتُّجار، وقد صوَّر بلادَ مَالي في صورةِ دولةٍ إسلاميَّةٍ زاهرة[١].

ثم بعد وفاة سلميان، أخذت مملكة مالي في التَّدهور بسبب سُوء الحكم، وفساد التَّدبير، وهجماتِ أعدائها عليها.

وقد تولَّى بعد مَنْسَى سليمان عدةُ ملوك، منهم: مَنسى ماري جاطة بن مَغان بن موسى، (٧٦٣هـ/١٣٦٢م) وكان قاسيًا في حكمه ومترَفًا، وفي عهده هرب رَهينتَا مَلك سُنْغاي، وعادَا إلى غاو، وتوفِّي منسى ماري في عام (٧٧٦هـ/١٣٧٤م)

وتولَّى الحكمَ بعده ولده (مُوسى) وكان أحسنَ حالاً من أبيه مع كونه ضعيفًا، وابتُلي بوزير مستبدٍّ، وحاول استردادَ بعض المناطق الخارجَة عن ولائه، لكنّه لم يُوفَّق، وتُوفّي في عام (٧٨٩هـ/١٣٨٧م)، [٢].

وخلَفَه أخوه مَنْسى مَغان الثَّاني، وقد انشغل في حكمه بالحروب الأهليَّة على العرش حتَّى قُتل على إثرها، في عام ٧٩٠هـ. واستَلم الحكمَ من بعده صُنْدُكي، وهو زوجُ أمِّ مَغان الثَّاني، واستمرَّ في الحكم حتى عام ٧٩٣هـ، وتميَّزت فترةُ حكمه بحدوث فتنٍ كثيرةٍ استغلَّها أحدُ أفراد الأسرة واسمه (محمود) وهو أحد أحفاد (سونديَاتا)، وعُرف بمغان الثالث[٣].

في الوقت الّذي كانت تنحدر فيه مملكة مالي نحو الهاوية كانت دولة سُنْغاي الإسلاميّة تعيش مرحلةَ الصُّعود حيث امتدَّت على ضفتي نهر النَّيجر منذ القرن السَّادس الهجريّ.

واستقلت سُنْغاي عن مملكة مالي في القرن التَّاسع الهجري، فانكمشت الأخيرةُ بشكلٍ تدريجيٍّ في إقليم (كانغابا) وهو الإقليم الذي كانت فيه مملكةُ غانا في أَوْج قوَّتها.

---

(١) انظر: حسين مؤنس، المصدر السابق، (ص٣٧٤)، وانظر: ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، (رحلة ابن بطوطة)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ط. ١٤١٧هـ، (٤/٢٥٥-٢٦٦).

(٢) انظر: قداح، المصدر السابق (ص٥٨)، وبيلتو، المصدر السابق، (ص٤٤)، وعلي يعقوب، المصدر السابق (ص١٩).

(٣) انظر: قداح، المصدر السابق، (ص٤٤).

وخاف مَلِك مملكة مالي محمّد الأول من خطر سُنْغاي، فاستنجد بالعُثمانيين الأتراك وطلب حمايتَهم في عام ٨٨٦هـ(١٤٨١م)،ولم يُسعفوه.

ثم استغاث بالبرتغاليِّين الّذين كانوا في بداية زحفهم إلى السَّواحل الغربيَّة للقارة الإفريقيَّة من خلال إقامة مراكزَ لتجارة العَبيد هناك، لكنَّهم أيضًا لم يتجاوبوا مع طلبه.

ومما يجدُر تسجيلُه في هذا المقام أنَّ البرتغال مهَّدت لاحتلال المنطقة من خلال توطيد العلاقات مع مَلِك مالي وتبادُلِ الهدايا والثَّناءات، ثم من خِلال إرسال سفيريْن إلى (نِيَاني) عاصمةِ مالي، بينما لَعب السَّفيران دورَ الجاسُوس المستخفِي بهيئة المسْتَكشف، فدوَّنا جميعَ المعلومات الَّتي شكَّلت كنزًا إستراتيجيًّا بالنِّسبة للبرتغاليِّين لاحقًا عند غزوهم البلاد.

وسُجّل أوّل توَغُّلٍ للبرتغال بمعيّة السُّلطان المالي محمود الثّاني عام ٩٣٨هـ(١٥٣٣م)، حيث استجابوا لطلبه المساعدة، ولكن ليس لقتال دولة سُنْغاي بل للتّصدِّي لهجوم قبائل الموسي الوثنيّة، وضدّ أحد زعماء الفولانيِّين، الذي سيْطَر على منطقة فُوتا جَالون، واستقلَّ بحكمه، وحارب محمود الثّاني، وكان نتيجة هذا التّخطيط اللَّامسؤول دخولَ البرتغاليِّين غامبيا وإجلاءَ الفولانيِّين التَّكارنة عن نَهر فَالَم.

واستغلَّ منسى مالي هذه الظُّروف وأعلن الثَّورة على مملكة سُنْغاي لكنّها باءت بالفَشْل، حيث أجهضتها وتوسَّعت على حساب الأراضي الماليّة.

وإلى غاية النِّصف الثّاني من القرن العاشر الهجري، فَشِل سلطان مالي محمود الثّالث في استرجاع تِمْبُكتو من سُنْغاي، ولكنَّه تمكَّن من استرجاع بعض المناطق التي مكَّنته من الحصول على موطأ قدم على المحيط الأطلسي ووطدّ فيه خطوطَ تجارته مع البرتغاليِّين.

واستمرَّت هذه المرحلة في الصِّراعات والاقتتال على الأراضي والنُّفوذ بين لاعِبين شتَّى في المشهد المالي، وكان فيها انتصارُ مملكة سيغو الواقعة في أواسط حَوض نهر النّيجر والّتي تتألَّف من قبائل البامبارا الوثنيّة على مملكة مالي بعد هُجومها على العاصمة (كانغابا) في عام ١١٠٨هـ(١٦٩٦م) وانتهى الأمر بدفع مالي الجزية للوثنيّين.

واستمرّ تسلُّط القبائل الوثنيَّة واعتداءاتهم على مملكة مالي حتّى دبّ الخلافُ والضَّعف في مملكة سيغو بسبب التَّنافس القبلي، فانتهز سلاطين مالي الفرصة وأعادوا بناءَ

عاصمتهم واستقرّوا فيها قُرابة قرن ونصف، عَرفوا خلالها الهدوءَ نسبيًّا حتّى فاجأهم الاحتلالُ الفرنسيّ الّذي احتلّ (كانغابا) عام ١٣١١هـ(١٨٩٣م)، ونَقل العاصمة إلى (بامكو)، وبدأت مرحلةٌ طويلةٌ للمقاومة والجهاد ضدَّ المحتل الّتي انتهت بالاستقلال في عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م).

ومع انهيار مملكة مالي يجب الإشارةُ إلى جُهودها الكبيرة في نشر الإسلام لاهتمامها بالعلم والدَّعوة والجهاد، حتّى وصلت بركاتُ جهودها إلى قبائل الهوسا السّاكنة في شمال نيجيريا[١].

وكان التّناقلُ السّريع للسُّلطة في ظرفٍ قصيرٍ سببًا في ضعف مفاصل المملكة وتدَهْوُرها.

وكان أبرزُ أسباب انهيار مملكة مالي ما يلي:

١) انهيارُ جيشها، فتعرَّضت بسبب ذلك مملكةُ مالي إلى الهجمات، وتفككت، وتمزَّق شملُها بإعلان الإمارات والأقاليم الاستقلال عنها.

٢) هجمات الطَّوارق المتلاحِقة الّتي مكَّنتْهم من الاستيلاء على مَدينتي تِمْبُكتو ووَلاتة، ونَهبِهم وسيطرتِهم على مُعظم مناطق مالي الشِّماليّة.

٣) هجماتُ الفولانيّين التَّكارنة، في الجُنوب الغربي الّتي مكَّنَتْهم من السَّيطرة على أجزاء منها.

٤) هجماتُ القبائل الوثنيّة في الجُنوب الّتي دمَّرت وَنهبتْ أجزاءَ من المملكة.

٥) هجماتُ دولة سُنْغاي في الشّرق الّتي بدأت بالصُّعود على بَقايا مملكة مالي.[٢]

---

(١) ليلى حمدان، المصدر السابق.

(٢) انظر: بيلتو، المصدر السابق، (ص٤٥)، وليلى حمدان، المصدر السابق.

مملكة سُنْغاي الإسلاميّة في القرن ٩هـ حتّى ١٤هـ(١٥-٢٠م)

كما قامت مملكةُ مالي على أنقاض مملكة غانا، كذلك قامت مملكة سُنْغاي على أنقاض مملكة مالي، وشَهدت هذه المملكة مرحلةَ صُعود باهرٍ قَادها للعزّ والسُّؤدد، بفضل جهود شعب سُنغاي الذي اعتنى بنشر الإسلام في المنطقة[١].

وتُعدّ مملكة سُنْغاي من أطول الدُّول بقاءً قبل الاحتلال الأوروبي، وقد بسطَت نفوذَها شمالًا على ما يسمَّى اليومَ (بنين، وبُوركينا فاسو، وغرب النَّيجر، وامتدَّت في الشَّرق إلى أطراف غامبيا والسِّنغال)[٢].

وكانت عاصمتُها مدينة (غاو) التي تَقع على نهر النَّيجر.

وقد طرق الإسلام قلوبَ أبناء شعب سُنْغاي تمامًا كما طرق قُلوبَ شعبي غانا ومالي وغيرهما من شعوب السُّودان الغربيّ، وأخذ الإسلامُ في الرُّسوخ والانتشار، وساعدها في ذلك العلاقاتُ التِّجاريَّة القويَّة مع التُّجار المسلمين القادمين من الشِّمال والشّمال الشّرقيّ إلى عاصمة سُنْغاي الأولى (كوكو)، وما حولها من المدن والبلدان.[٣]

وبفضل تفاني التُّجار المسلمين المخلِصين لدينهم تسرَّب ذلك الحبُّ الشَّديد للإسلام إلى شعب سُنْغاي قَبل حكَّامهم، وما إن أسلم الحكّام حتى انعكست أنوارُ الحضارة الإسلاميّة رقيًّا وازدهارًا في المملكة الإسلاميّة الجديدة. وازدادت قوةً وتألقًا.

وكان أوّل اعتناق للإسلام من حكّام سُنْغاي في عام ٧٥٦هـ(١٠٠٩م) عندما أعلن ملكها (زا كُسي) عن إسلامه، وذلك في سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م،[٤] ونقل عاصمة البلاد من (كوكو)، إلى مدينة غاو، للاستفادة من موقعها الإستراتيجي في وسط المملكة، ولقربها من طرق القوافل الرئيسيّة التي تَصل المغربَ ببلاد السودان الغربي[٥].

---

(١) انظر: باري، محمد فاضل علي، وكريدية، سعيد إبراهيم، **المسلمون في غرب إفريقيا: تاريخ وحضارة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى، ٢٠٠٧م، (ص١٠٩).

(٢) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١١٠).

(٣) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١١١، ١١٢)، ومراد، حسين سيد، **مملكة سُنْغاي، مجلة قرءاءات إفريقية**، العدد السادس عشر، رجب-رمضان، ١٤٣٣هـ، يوليو-ديسمبر-٢٠١٢م، (ص١٥).

(٤) انظر: السعدي، تاريخ السودان، (ص٣).

(٥) انظر: باري، وكريْدية، المصدر السابق، (ص١١٠).

فاستفادت سُنْغاي من قوافل التّجّار والدّعاة والعلماء الّذين نذروا حياتهم وأنفسهم لنشر دين الإسلام وخدمته، فخرج معهم في رحلاتهم طلّاب العلم من غرب إفريقيا إلى الأزهر والقيروان وفاس ومرّاكش. وكان في كل هذا الفضّلِ يَدٌ للمرابطين الّذين كانوا من أوائل الدّعاة للإسلام في المنطقة[1].

ولا شكّ أنَّ بداية صُعود سُنْغاي ولَّدَ احتكاكاتٍ مع مملكة مالي آنذاك، وللأسف كان الخلاف بينهم أكثر منه مع الوثنيِّين، ولكن صراع النّفوذ بين سُنْغاي الفتيَّة ومالي المتمكِّنة انتهى بانتصار الأخيرة التي هَيْمنت إلى أجَلٍ مسمّى[2].

وكان أوّل سلطانٍ لمملكة سُنْغاي علي كولن الّذي تسمى بـ (سُنِّي علي)، ولكن توفّي سريعًا؛ لكبر سنِّه، فورث ملكَه أخوه سلمان نار، وأعلن الاستقلالَ عن مالي الّتي ما لبثت أن عادت لهيمنتها.

واستقلت سُنْغاي تمامًا عن مالي في عصر ملكها محمد دُوغو الّذي شنّ في عام ٨٢٣هـ (١٤٢٠م)، حملةً ضدّ مالي كانت سببًا في تثبيت دعائم مملكة سُنْغاي[3].

مملكة سُنْغاي الإسلامية في عهد سُنِّي علي (٨٦٩-٨٩٧هـ) (١٤٦٤-١٤٩٢م):

تولَّى عرشَ مملكة سُنْغاي أكبر ملوك أُسرة سُنِّي، وهو (سُنِّي علي) الّذي يُعدُّ المؤسِّسَ الحقيقيَّ لمملكة سُنْغاي الواسعة، سنةَ (٨٧٣م/١٤٦٨م)، وكان رجلًا قليلَ الالتزام بالدِّين، فكان العلماء كثيرًا ما يعترضون على تصرُّفاته، فأبغضهم، وكَثُر إيذاؤُه إيّاهم، وعُدوانُه على المساجد والزّوايا الّتي كانوا يَقرؤون فيها، وتآمَر عليهم وتخلَّص من عددٍ كبير منهم بالقَتل، فَجلب لنفسه كراهيةَ أهل العلم وبُغْضَهم[4].

وكان جريئًا واسعَ النِّشاط، فغزا تِمْبُكتو في عام ٨٧٣هـ، وسَيطر عليها، وطَرَد منها الطَّوارقَ المحتلِّين لها منذ سنة ١٤٣٥م، وكانت مركزًا تجاريًّا كبيرًا حافلًا بالمتاجر والمساجد

---

(١) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١١٢-١١٣).

(٢) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١١٣).

(٣) بيلتو، المصدر السابق (ص٤٩).

(٤) انظر: حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام**، (ص٣٧٥)، وباري، وكريدية، **المسلمون في غرب إفريقيا**، (ص١١٥)، والسعدي، **تاريخ السودان**، (ص٦٦).

وأهل العلم، فجعلها العاصمة الثَّانية لبلاده، ثمّ وقع الخلاف بينه وبين العلماء فاضْطَهدهم، وأَوْدع كثيرًا منهم السِّجن، ثم أحرق البلد[1].

وارتفع شأنُ مملكة سُنِّي عَلي فأخضعت منطقةَ النَّيجر برُمَّتها ومدينةَ جِنِّي عام ٨٧٨هـ- ٨٨٠م. وكان يَحْكُمُها رجالٌ من السُّونِنْكي المسلمين الذين جعلوها إمارةً صغيرةً غنيَّةً بعد أن تحوَّلت تجارةُ الذَّهب من غانا إليها، وكانت شهيرةً بعلمائها ومساجدها، لكنّه لم يفعل بها ما فعله في تِمْبُكتو، وإنّما اكتفى بالتّوثُّق من طاعتها وعاد إلى غاو[2].

وكان في الجانب العسكريّ محاربًا قويًا، تمكَّن من صدّ هجمات أشدّ أعدائه، ولكن ضعفه العَقديّ في قيادة الدَّولة عوَّضه وزيرُه المسلم عظيمُ الشّأن محمّد أبو بكر ويُعرف باسم محمّد الطُّوري من قَبيلة السُونِنْكي، وكان قويَّ الإيمان، واسعَ الثَّقافة، وحكيمَ العقل. اشتَهر بعدله وإنصافه وشفقته، فَكسب سلطةً واسعةً ونفوذًا في الدَّولة الّتي كان يدير شؤونَها بِدراية وذكاء[3].

وتُوفِّي سُنِّي عَلي في أثناء عَودته من إحدى غَزواته في عام ٨٩٧هـ حيثُ قَطع طريقه سيلٌ جارفٌ، فقضى فيه نحبَه[4].

مملكة سُنْغاي بعد وفاة سُنِّي علي:

خلف سُنِّي علي ابنُه على عرش المملكة، لكنَّ السُنْغايين اتَّهموا إسلامَه، فثاروا عليه فَخلعوه، وولَّوا مكانَه قائدَ الجيش محمَّد بن أبي بكر، فأصبح مَلِكًا لمملكة سُنْغاي عام ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣هـ. واتَّخذ لنفسه لقبَ (أَسْكِيَا) بدل (سُنِّي)، فكانت هذه بداءةَ حُكم أُسرة (أَسْكِيَا) في مملكة سُنْغاي الإسلامية[5].

---

(١) انظر: حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام**، (ص٣٧٥).

(٢) انظر: حسين مؤنس، المصدر السابق، (ص٣٧٥).

(٣) انظر: ليلى حمدان، المصدر السابق.

(٤) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١١٥)، والسعدي، **تاريخ السودان**، (٧١).

(٥) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١١٦).

مملكة سُنْغاي الإسلامية في عهد أَسْكِيَا محمد أبو بكر:

بلغتْ مملكة سُنْغاي الإسلاميّة أَوْجَ قوَّتها في عَصر أَسْكِيَا محمَّد، الَّذي نَظم الإدارةَ، وجهَّز الجيشَ بشكلٍ مُبْهِرٍ، وَبسَط نُفوذ دولته على أراضي جديدة في الشِّمال، وعلى سواحل المحيط الأطلسي، وبَلغ حكمُه إلى قبائل الفُولّاني وَحوضِ السِّنِغال في الغَرب، ومنطقتي أغْدَاس ودَنْدِي، وحدودَ إمارات الهوسا في الشّرق. فكانت مرحلةُ الازدهار والتّوسُّع، واجتَذبت هذه التَّطوُّراتُ العلماءَ، وقِويت شوكة أَسْكِيَا محمّد بهم حتّى بلغتْ مملكتُه من بلاد الموسي الوثنيّة على حوض النَّيجر، إلى عُمق الصَّحراء الجزائريّة شمالًا[1]، وانتشرت مع هذا الصّعود الدّعوةُ إلى الإسلام، كما ازدهرت الزِّراعةُ، وقَوِي الاقتصاد وانتعش.

وبعد أدَائه لفريضة الحجّ، عاد أَسْكِيَا محمّد للجهاد ضِدَّ قبائل الموسي الوثنيّة الزِّنجيّة، وحاربهم بعد أن رَفضوا الجِزية، وانتصر عليهم لتتوسَّعَ مملكتُه إلى سواحل المحيط في الغرب، وإلى الصَّحراء في الشِّمال، وإلى بُحيرة تشاد في الشَّرق[2].

وتجد الإشارةُ إلى أسباب صناعة القوَّة الّذي تميَّز به أَسْكِيَا محمّد، فقد أَسر ملِكُ سُنْغاي الكثيرَ من الأطفال الوثنيِّين في الحروب، فعلَّمهم، وهداهم للإسلام، ثمّ درَّبهم ليصبحوا جُنودًا أوفياءَ له في جيشه، فكان قرارًا ذكيًا ومشروعًا ناجحًا[3].

مملكة سُنْغاي الإسلامية بعد أَسْكِيَا محمد:

استمر أَسْكِيَا في قيادة بلاده للرَّخاء والاستقرار حتّى تقدّم في السِّنّ، وضَعُف جسمُه، وفَقد بصرَه، فانقلب عليه أولادُه في عام ٩٣٥هـ(١٥٢٨م) لإجباره على التَّنازل عن الحكم لابنه موسى. ومنذ ظُهور التَّنازع على الملك إلى عام ٩٩٨هـ(١٥٩١م) سَقطت المملكةُ في مُستَنْقع الضَّعف والتَّمزُّق، وتصدَّعت أركانُها، واعْتلى كرسيَّ الحكم مُلوكٌ جهلة، جَشِعُون فَاجرون، أمْعنُوا في قتل بعضهم بعضًا، وَمضوا في الدُّنيا خلفَ شَهَواتِهم ورَغباتِهم الشَّخصيَّة[4].

---

(١) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١١٧).

(٢) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١١٧، ١٢٠).

(٣) انظر: قداح، **إفريقيا الغربية في ظل الإسلام**، (٧١)، وباري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١٢٠).

(٤) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١٢٠-١٢١).

وتزامَنَ هذا الضّعفَ محاولةُ مملكة مالي الاستعانة بالبرتغال في عام ٩٤٢هـ(١٥٣٤م) للتّخلُّص من سلطان سُنْغاي والثَّورة عليها، إلا أنَّها فشلت بِقَمْع مَلِك سُنْغاي لها آنذاك محمّد بَنْكَه[١].

سُقوط مملكة سُنْغاي الإسلاميّة:

أطمعتْ حالةُ الضَّعف الَّتي تعيشها مملكةُ سُنْغاي الأعداءَ في الاستيلاء عليها، وفتحت كذلك شهيَّةَ لَاعِبٍ جديد في المشهد لم يكن في الحُسبان، فقد تحوّل تركيزُ سُلطان المغرب آنذاك منصور السَّعدي، للاستيلاء على مناجم الملح والذّهب في منطقتَيْ تَغَازي ووانقَارا تحت يَد سُنْغاي، كما كان يَروم الاستيلاءَ على العبيد الوثنيِّين لنِشاط تجارة العبيد في ذلك الزَّمان[٢]، إضافةً إلى دوافع سياسيّة ، كان أبرزُها: أنّ هذه الحرب شكَّلت فرصةً للسّلطان السَّعدي لإبعاد قادتِه العسكريِّين عن دائرة البَلاط، وشَغلهم عن مشاريعهم في شنِّ حُروب لم يكن مقتنعًا بها، ولذلك أرسلَ حَمْلةً تضمُّ من ثلاثةِ إلى أربعةِ آلاف جُنديٍّ مقاتلٍ من غير المغاربة، يَقودهم ضابطٌ اسمه جُودُور باشا، وهو إسبانيّ الأصل، حيث التقى جيشَ سُنْغاي البدائي في عام ٩٩٨هـ(١٥٩١م)، في مَعركة تُعرف باسم معركة (تَندِيبي)، شمال (غاو)، وكانت سُنْغاي حينَها تحت حكم أَسْكِيَا إسحاق الثّاني.

وجمع مَلِكُ سُنْغاي أَسْكِيَا إسحاق من ثلاثين إلى أربعين ألفَ مُقاتلٍ بالسُّيوف والحِرَاب والرِّماح والسِّهام، ليتفاجأوا بجيش المغاربة مدجَّجًا بأسلحة ناريَّة لم يَسبق لهم أن رأوها أو تَعاملوا معها، والّتي عوَّضتْ من ضعف الجيش بعد خسائره في رحلته الطّويلة والشّاقة تحت الحرِّ قَبل الوصول من المغرب إلى القارة الإفريقيّة جنوبًا[٣].

وبمجرد إطلاق النَّار، فزعت الثيران الَّتي كانت في مُعَسْكر جَيش سُنْغاي يتدرَّعُون بها من البنادق، وأحدثتْ الفوضى، فَقُتل عددٌ كبيرٌ من الجنود[٤]، وتمكَّن الجيشُ المغربيُّ من الاستيلاء على تِمْبُكتو، بعد قيامهم بمجزرةٍ دمويَّةٍ في حقِّ شعب سُنْغاي، وحُوصر

---

(١) انظر: بيلتو وشاكر، مالي، (ص٥١)، وباري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١٢١).

(٢) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١٢١).

(٣) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١٢١).

(٤) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١٢٢).

خلالَها العلماءُ في المساجد، وسِيق من بَقِيَ من الأسرى إلى غاية مرَّاكش. وكان من بينهم المؤرّخ أحمد بَابا[1].

ولم يتوقَّف الأمرُ عند هذا الحدّ؛ فقد فَرَضت المغربُ ضرائبَ طائلةً على السُّكان، وتسبَّبت درجةُ الصَّدْمة والقوَّة الّتي جاء بها المغاربةُ من دخول الجيش المغربيّ لمدينة (غاو) عاصمة سُنْغاي دون أن يكلِّفَهم ذلك طلقةً واحدةً.

وسارع مَلِكُ المغرب لتغيير القائد قبل أن يتأثَّر بدعواتِ من حوله، حيثُ بدأ يَميل لتخفيف الضَّغط على شَعب سُنْغاي.

وهكذا فُرضت الجزيّة على هذه المملكة الإسلاميّة على يد مملكة إسلاميّة أخرى!

وقُتل ملك سُنْغاي أَسْكِيَا إسحاق الثَّاني في موقعة (بامبا)، فخَلَفه أَسْكِيَا نوح الَّذي عَمل على إذكاء رُوح المقاومة الشّعبيّة، وبدأت حربُ مقاومةٍ شرِسَةٍ استطاعت خلالَ أربع سَنَوات أن تُكبِّد الجيشَ المغربي الكثيرَ من الخسائر، لكن الحمَلات المغربيَّة توالت لكسرها مما اضطر أَسْكِيَا نُوح إلى الهَرَب، وانتهتْ مُقاومته في عام ١٠٠٤هـ (١٥٩٥م)، وبوفاته انتهت مملَكةُ سُنْغاي[2].

نِهايَةُ الجيش المغربي:

استمرت المغرب في إرسال الحمَلَات العسكريّة إلى السُّودان الغَربي حتى بعد سقوط سُنْغاي، حيث تُشير بعض التَّقارير إلى وصول ثلاثةٍ وعشرين ألفَ جنديٍّ بين عامي ٩٩٩هـ و١٠٢٧هـ (١٥٩٠ و١٦١٨م).

وكانت سِياسةُ الجيش إمّا دفعُ الجزية أو تدميرُ المدن، وكذلك كان حالُ مدينة جِنِّي، الّتي فرض المغاربةُ على سكّانها إتاواتٍ ضَخمةً، فُدُمِّرت مدينتُهم لرفضهم لها.

ومع ذلك لم يتمكّن الجيشُ المغربي من السَّيْطرة على كاملِ مساحة مملكة سُنْغاي، واكتفى بالسَّيطرة على المدن الرئيسَة، (غاو وتِمْبُكتو وجِنِّي)، فانفلتت البلادُ، واشتدَّت المعاركُ، وآل الحكمُ لرجال القبائل، وانتشر الظُّلم ومعه المجَاعةُ والطَّاعون في تِمْبُكتو، فقضى نصفُ السُّكّان نحبَهم في هذه النَّازلة. وتلاشى إرثٌ حضاريٌّ مَهيب.

---

(١) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١٢٢).

(٢) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١٢٢).

ومع الوقت امتزج المغاربةُ مع السُّكَّان الأصليِّين وذابوا بينهم، وعاشوا معًا حتَّى عام ١١٦٩هـ(١٧٦٠م) حيثُ استردّ الطّوارق المدينةَ، وأزالوا عنها سلطة مرَّاكُش.

وانقلب الزَّمانُ وتحوّل البَاشواتُ لدفع الإتاوات للحكّام الوثنيّين من ملوك البامبارا جنوبَ كَانغابا في حوض نهر النَّيجر، واستمر الحالُ على ما هو عليه حتَّى دخلت جحافِلُ الفرنسيِّين في القرن الثّالثَ عشرَ الهجريّ (١٩ميلادي)، وبَسطوا نفوذَهم على كلِّ المنطقة، وأَلقوا عليها اسمَ (إفريقيا الاستوائيّة الفرنسيّة)[1].

(١) انظر: باري، وكريدية، المصدر السابق، (ص١٢٣-١٢٤).